

حبس بحيرة قدس

الاب هنري لامنس اليسوعي

سربة بقلم المعلم رشيد الشوتوني (تابع لا سبق)

١٩

وهم جوسلين ان يرد جواباً يبرئ به نفسه غير ان الضجة التي علت في القصر وقتل حوت عنه الالاماع وكان ان حصاً اسود اللون ضيلاً دخل من البرابة محضراً وقد وقف شعر عنقه وخرج الربد من فيه وغطى العرق والغبار بدنه فحالاً شاهده رجال الامير رزق الله صرخوا بصوت واحد قائلين " هذا هو الريح "

واخذوا يتساءلون متعجبين كيف استطاع ان يلحق بهم لانهم عند مبارحتهم بشرأي كانوا قد تركوه مربوطاً في اصطبلات الامير وفي اثناء سفرهم لم يلحق احد منهم اماء الريح " فانه سارتوا الى المشتقة واخذ يصلو بشدة ويحجم بنعمة مخصوصة تدل على شكواه ثم انه علق يشم الارض واقبل يحفرها بسنجه وكان الكل ينظرون اليه ويتمجبون من حركاته الغير الاعتيادية غير انه لم يخف شي من ذلك على جوسلين الذي مذ شاهد الحصان يفحص الارض دبت الرعدة في كل اعضائه

اما الامير رزق الله فكان ينظر الى الحزم ويراقب جميع حركاته فامر ان يصفد بالاغلال وان تحفر الارض التي وقف عليها الحصان. فما كادوا يضربونها بالمعول بعض ضربات حتى بان ان التراب مقارب حديثاً ثم بان جثة دبت فيها عوامل الفساد وكان مشهدها يدل على انها اودعت القبر من نحو ثمانية ايام على الكثير. ولدى التأمل في الوجه الذي كان حتى ذلك الوقت غير متغير ولا مشوه ظهر انه وجه مالك بعينه حاجب الامير وكان عنقه محوطاً بخيط ازرق كبير ولسانه خارجاً من فيه بشكل قطيع يدل دلالة بقة على نوع الموت الذي ذاقه. اما جوسلين فقد حاول الانكار حتى بعد ظهور الجثة ولكنه ما لبث ان قد الجلد وداخله الاضطراب واتى في كلامه بالتناقضات

ومع وضوح الجريمة وثبوتها حاول الامير رزق الله ان يحمل جوسلين على الاقرار بها

والندامة عليها فلم يستد من ذلك شيئاً فحينئذٍ أخرج من جيبه رزمة من الادراق واراها اياه قائلاً:

هذه ادلة لا تستطيع انكارها شاهدة على خيانتك قد اردت ان تباع لبنان الى اعدائنا صيرت عكّار والضفة والمثولة وعرب البقاع. انظر الى هذه التعادير أليست هي من خطك. تمنّ في هذا التوقيع أليس هو ختلك بينه ؟
فلم يُجِر جوسلين جواباً امّا الامير رزق الله فاتمّ كلامه قائلاً:
اي شيء تقضي شرائنا على الخائن ؟

« الموت الموت. الموت للخائن. لا رحمة لقاتل مالك ومضطهد الاب يوحنا ومحرق دير حصن سليمان ». هكذا هتف جميع الجنود اللبنانيين بصوت واحد فلما ركن الحضور الى الهدر عاد الامير رزق الله وخاطب جوسلين قائلاً :
هل لك ما تقترض به يا جوسلين على هذه الشكايات والبيّنات الواضحة. أثوثر السكوت ولا تعلم ان السكوت كالاقرار... فليجر العدل

واذ ذاك سَمِع صوت هاتف يقول: « وانا اطلب العدل ايضاً » فالتفت الكل الى جهة الصوت فشهدوا رجلاً يحاول ان يشق صفوف الجند حتى يتصل الى مجلس الامير وكان الرجل المذكور هو عين ذاك اليهودي المرائي الذي تقدّم الحُجْر عن مفادته بنسبة لقصر القليعة قبل وصول مالك اليها بيضعة ايام. وكان قدّر الملابس شنيع الصورة فحالاً مثل بحضرة الامير صرخ قائلاً:

اني آت من بشرأي التي ذهبت اليها لكي اُطّلك على خيانة جوسلين وجرائمه بالادلة والبيّنات الساطعة التي لا تقبل ردّاً. ولا ريب انك تكافئني على هذا الاخلاص بان لا تضيع عليّ شيئاً من حقوقي

قال هذا ومدّ يده الى جيبه ولزّيد عجائبه أخرج دفترًا كان قد قيّد فيه البالغ المختارة التي أقرضها الى جوسلين وهي التي سوّلت لهذا الاخير قاديّه في مصيبة مولاه فلما آجال الامير فيه نظره ظهرت على وجهه امانر الغضب لانه لما قاب الصفحة الثانية من الدفتر قرأ فيها ما نصّه: « برأطيل الى خدّم الامير رزق الله لاجل استكشاف بعض الاسرار منهم... كلفة السر الى جيل لاجل مذاكرة مقدمها في الاتفاق مع جوسلين... »

- يا لك من شقي . باي جرأة استعملت فضتك تسميراً لثيران الثور . وباي وقاحة
سعت في افساد رجالي وبث روح المعصية في لبنان . ومن بعد هذا كله تتجاسر على
طلب المكافأة

حينئذ خزن نثنائيل راكمًا على مكتبه فقال : عفوا ايها الامير قد غلطت في ما قدّمته
لسعادتك رهاك ما بين حقوقي بنوع صريح وثبت صوابية مطالبي
ثم قدّم للامير الصك الذي وقّع جوسلين وفيه يملكه كل الاراضي التي كانت
مختصة بدير حصن سليمان

فلما اتم الامير قراءة الصك المذكور مزقه قطعًا ورماه ثم قال :
ان هذا الصك باطل لان جوسلين لا يستطيع ان يملك ما لا يملكه بوجه شرعي .
واما انت ايها اللئيم فالشتى اقل عقاب تستحقه ولهذا فقد نفسك سعيدا اذا كنت لا
اعمالك بموجب جريرتك

فلما سمع نثنائيل بالعقاب والمشقة غير لهجته ولجأ الى التوبة التي يمتاز بها حيل
اليهود عند المصائب وقال :

ان كل ما تنفّل به سيدي الامير حق وصراب فليفعل بعبده ما يشاء ويريد . .
ولكن فليسمح لي ان اعرض على ماسمعه باي كنت على الدوام مخاضا لسوء . واذا
كنت قد دخلت قصر القليعة فذلك للمواظبة على خدمته لاني كنت اطعم بالوقوف
على أسرار جوسلين . نعم اني كنت آتية ببعض معاومات ولكنها لم تكن بذات بال
وكان قصدي ان اطلع منه على ما هو اهم واعظم شأنًا لأبلغه الى سموك . ولم ازل
محافظة في منزلي بمدينة طرابلس على أوراق كثيرة موقّعة بامضاء جوسلين وهي تثبت
بما لا مزيد عليه من الصراحة والوضوح اشتراكه في كل ما جرى من القلاقل والاضطرابات
بهذه السنوات الاخيرة في لبنان

وكان اليهودي هذه المرة يحكي الصدق ويقول الحق لانه حافظ بكل حرص على
جميع المراسلات التي كانت متداولة بين جوسلين والمتاوله غير ان الامير توهم ان هناك
مكيدة فانف من مجاورته ولكن اليهودي اتم كلامه بسكينة قائلا :

واذا كنت قد طلبت منه ان يملكني الاراضي المختصة بدير حصن سليمان فقد
كنت تاريا ان اردّها الى رهاقه الاجلاء مالكيها الشرعيين

فلما سمع جوسلين هذا الكلام لم يقوَ على كتم غضبه ولو لم يردّه الحاضرون لانتفضّ على اليهودي فخنقه خنقاً ثم قال:

ايتوني بسيف. ايتوني بسيف لاني اغادر الدنيا مسروراً اذا ارسلت قبلي الى دار البلاء. هذا المرامي اللئيم النجس. والتفت الى الامير قائلاً: ايها الامير انك جندي مستقيم وانا اقبل الموت من يدك ولكن لا تترك هذا الرغد يستطيل عليّ في الاهانة فقد استصفي أموالي في حياتي ويريد الآن ان يتاجر بجدي

وكان جوسلين يهيم بأكمال حديثه ولكن الامير رزق الله التفّت الى اثنين من جنوده وقال لهما وهو يشير الى ثنائيل: أبدا الآن هذا الرجل فعلينا أمور اهم يجب ان نستوضحها

أما اليهودي فلم ينتظر الجنديين ان يقبضا عليه ويوجهاه قهراً ولكنه بادر الى مفادرة القليعة أسفاً على انه لم يبقَ له فيها من ربح

وبذل فرا غريزون غاية ما في وسعه لحمل جوسلين على الندامة فذهبت تحويضاته باطلاً لان جوسلين لم يجاوبه إلا بهذه الكلمات: أريد ان اموت كما عشت ودونكم رأسي فمجلوا بقطعه وهذا كل شتاي

وبعد قليل ثابت جثة جوسلين في المشقة عن جثة مالك التي كانت أترت عنها من نحو ثمانية ايام. وهكذا ارتضى العدل البشري ولا تعلم كيف ان العدل الالهي استوفى ايضاً حقه

أما جثة الحاجب مالك الذي ذهب ضحية القيامة بفروضة فبعد ان حُلّي عليها فرا غريزون وكُفّت بكفن لائق أُلحِت بالأكرام في ضريح خاص أعد لها. وقد حضر حفلة الدفن جمعُ الامير منكسي الرماح دلالة الحزن ولا هيل القراب على الجثة تناول كل منهم قبضة وألقوها على الدفين وكان الامير رزق الله أول من فعل ذلك وقد بكى خادمة الامين بدموع غزار

وحاول فرا غريزون ان يزيه نألي ان يتمزى قائلاً:

دعني يا ابي هذا الخادم المسكين فبعد الله تعالى ليس احد غيري يعرف مقدار ما كان متريناً به من الاخلاص والحمية. فهو لا شك شهيد الامانة والواجبات ولما فرغ الجند من دفن مالك جاء «الريح» فرسه ووقد على قبره فحاول الجند

إيماده فلم يستطيعوا وقدموا له علفاً فأبى أن يذوق منه شيئاً. وفي صباح اليوم التالي وجدوه متمدداً بلا حراك على قبر فارسي.

٢٠

وفي أثناء هذه الحوادث التي جرت في جبل الكمام كانت راحيل المنكودة لا تزال تقاسي من العذاب امرأة في دار المقدم زين البترون. وكانت قد سلكت بالتلم والكمال على موجب نصائح الأب يوحنا ومشوراته على أمل أن ترى اقبالاً عليها من بعلم ولكن ما كان يزيد سوى إعراض وصد.

وفي مساء ذات يوم اشتد حزنها وراحتها جلدتها فسارت إلى كنيسة البترون لطلبها تبرّد هناك بالصلاة حرارة قلبها. وكانت الكنيسة في تلك الساعة فارغة وقد امتد عليها باط الكينة والمهدوء. والكهنة قد انموا من زمان يسير صلاة المساء فبقيت بقية من روائح البخور منتشرة في جوفها. ثم أن الشمس كانت قد مالت إلى الغيب ودخلت اشعتها الصغيرة من النوافذ القليلة المصنوعة على هيئة المراحي.

ومن أوصاف الكنيسة المذكورة أنها كانت ذات ثلاثة أسواق وثلاث حنايا شيدتها الصليبيون بموجب الهندسة القوطية يختلط بها شيء من الهندسة الشرقية. واقاموا من جهة الميكل شيئاً أشبه بالايقونستاس عند الروم وهو عبارة عن درابزين أو شعرة من الخشب المثقب كانت فاصلة بين المقدس وسائر الكنيسة. وكان الدرابزين المذكور مزيناً بصور شبيهة بالصور البرونزية. وأمامها قناديل لا تزال متوقدة ليلاً مع نهار. وأمام أرضها المبلطة بالفسيفساء فكانت تشتل على رسوم رمزية كالحروف الابتدائية من اسم المخلص وصور نحميا وطراويس تنقر اغصان الدوالي ويتأبل القمح. وكان في أقصاها شعرة ثانية تفصل الحل الخصوص بالنساء (ستأتي البقية)

صناعة التجارة في المشرق

بحث تاريخي وعلمي للاديب يوسف انصدي غنام ثابت

لما كنّا انسا ارتياحاً من القراء فيما كتبناه سابقاً عن بعض صنائع بلادنا رأينا أن نتصفح بما يكشف النقاب عن صناعة التجارة الشرقية ونفهرها وأحوالها ونذكر بالتنا.